الشّكــوى في شعــر أســامــة بن منقــذ

The complaint in Ossama Bno Monqith 's poetry

ط/أشـــواق تــريــعـــــة
قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمَّة لخضر-الوادي(الجزائر)

Achwaktria2@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/05/31 تاريخ القبول: 2018/01/16

ملخص:

تسعى هذه الدراسة للكشف عن ظاهرة الشكوى باعتبارها ظاهرة اتسم بها شعر **"أسامة بن منقذ "**، متخذين ديوانه أنموذجًا للدراسة ومحاولين الوقوف على مفهوم الشكوى، ثم استجلاء مظاهرها وصورها وموضوعاتها في الديوان ومدى مساهمتها في تكثيف الدّفقة الشّعرية ورصفِ النّص الشّعري وشحنهِ بمختلف الجماليات الأدبية، وبالتالي سنحاول انتشال الشاعر من بوتقةِ النّسيانِ وسننفضُ عنه غبار الإهمال.

الكلمات المفتاحية: الشّكوى، الشاعر، أسامة بن منقذ، ظاهرة، تجليات.

Abstract:

This study seeks to detect the phenomenon of complaint in the poetry of **"Oussama ben Mounketh"**,taking his volume as a model of the study . The researchers thereby tries to stand on the concept of complaint in term of language and terminology and then clarify their manifestations and images and themes in this volume of poetry and the extent of their contribution to intensify.its poetic splash and ornament the poetic text with different Literary aesthetics , so we as will try to save the poetry from the oblivion crucible.

Key words: complaint**,** poetry, Oussama ben Mounketh, phenomenon, manifestations.

تمهيد:

الشّكوى غرض من أغراضِ الشعر؛ فهي صورة تعكِسُ ما يعْلقُ في قلُوب البشر لِتُؤكد ضرورة فطرية صبغ اللهُ عبادهُ بها، فمن ذا الذي لا يتألم ولا يشكُو فحتى الأنبياء شكوا وكانت شكواهُمْ نبوية عظيمة؛ لأنّها كانت متجهة لله تعالى فسيدنا يعقوب عليه السّلام قال بعد **قوله تعالى** : ﴿(85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) ﴾[1]، وأيّوب لمّا نادى ربّهُ وشكَا ضُرّهُ إليه في **قوله تعالى**: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فاسْتَجَبْنَا لهُ فَكشَفْنَا ما بهِ من ضُرٍّ وآتيْناهُ أهْلَهُ ومِثْلَهُمْ مَعهُمْ رحْمَةً من عِنْدِنَا وذِكْرى للعابِدينَ**(84)﴾[2]. ليأتي بعد الأنبياء الشعراء في النبوغ في هذا الفن، حين عبّروا عن آلامهم بشكواهم التي جسَدُوها في شعرهم، فالشاعر هو لسان حال محيطه ومجتمعه، فإن واجه ضيّمًا أو كربًا تحرّك لسانه شاكيًا باكيًا عمّا يعْتلجُ في قلبهِ من حزنٍ وهمٍ وكربٍ ومن بين هؤلاء الشعراء الذين بكوا وشكوا شاعرنا البطل الفارس " **أسامة بن منقذ** " الذي تجرّع مرارة الويّلات التي جعلته يكتبُ شاكيًا همومه وأحزانهُ وبذلك تنوّعتْ قضايا الشكوى لدى أسامة نتيجة تنوع أحزانهِ ومعاناته، ومن هنا يمكن أن نتساءل عن الشكوى ومظاهرها وتشكُلاتِها في شعرهِ ؟

أولاً: الشاعر" أسامة بن منقذ " في سطـور:

1- مولده ونشأته الأدبية:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي[3]، الملقب **بأبي المظفر** أو(**مؤيد الدولة** أو **أبو سلامة**)[4] ، وُلِد في السّابع و العشرين من جمادى الآخرة سنة488 **هـ/**يوليو سنة 1095م وقد أكد **العماد الأصفهاني** هذا الخبر؛ إذ سمعه من أسامة في دمشق سنة إحـدى وتسعين وخمسمائة 591هـ ، وذلك لمّا سُئِل عن تاريخ ولادته فقال :" وُلدتُ سنة ثماني وثمانين وأربعمائة " أي 488هـ[5].

نشأ أسامة بن منقذ في بيت إمارةٍ يتسِمُ بالفروسية والشّجاعة وتحمل المصاعب والمشاق، فتلّقى تعليمه على أيدي فقهاء وأدباء ومؤرخين، فَدرس الفقه والحديث والأدب وحفظِ كثيرًا من الشعر القديم و قصص الأدب والتاريخ[6]، كما تسنّى له أن يطّلع على تراث العرب من شعرٍ ونثرٍ ، فحفظ الكثير من أشعارهم وأخبارهم حتى أصبح لديّه مخزونٌ وافر من

الثّقافة العربية، فقد حفلت كتبه بأشتات منها كما ضمّنت الكثير من مختارات الشعر ومفردات البلاغة وجوامع الكلم[7].

هكذا نشأ مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة في كنف أسرة مثقفة، فدرس اللغة والنحو والأدب دراسة مستفيضة، واطلع على التاريخ والسيّر وعلّمهُ أبوه النجُوم ومواقعها وتمرّس بأساليب القتال والصّيد[8].

2- **وفاتـــه:**

توفي الشاعر أسامة في الثالث و العشرين من رمضان **سنة584هـ** -1188م، ودُفِنَ في الغَد شرقي قاسيون ودخلت تربته جانب نهر يزيد الشّمالي[9].

ثانيًـا: مفهـــوم الشّكـــــوى:

أ - الشكوى في اللغة:

ورد في مقاييس اللغة **لابن فارس" شكَو "** الشّين والكاف والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ يدُلُ على الّتوجع من شيءٍ ما[10].

وعرّفها **الخليل الفراهيدي** في معجم **العين**: **" شكو "، " الشكوى "** نقول: **الاشتِكاءُ، شَكا يشْكُو شكاةً**، ويستعملُ الاشتكاءُ في الموجدةِ والمرض، فهو شاكٍ: مريض قد تشكّى واشْتكى وشكا إلى فلانٍ فلانًا، **والشّكُو**: المرض نفسُهُ[11].

فالشكوى في معناها اللغوي التعبير عن المرض أو المعاناة أو التعبير عن الانفعالات الذاتية وما صاحبها من ألم داخلي (نفسي) أو خارجي.

ب - الشكوى في الاصطلاح:

" هي تأثرٌ عاطفي يعْكِسهُ الشاعر بألفاظ رقيقةٍ مشحونةٍ بخلجاتٍ وجدانيةٍ وانْفعالات ذاتية، وتتنوع الشكوى تبعًا لتنوع هذا المؤثر فقد يشكو الدهر وتقلُباتهِ، ويتبرّمُ بالفقر والعَوز وينْدُبُ الشّباب و يَأسَفُ على غَدرِ الإخوانِ ومَوتِ الوفاء "[12].

أمّا إذا عرّفناها باعتبار أنّها فنٌ من الفنون الشعرية أو من فنون الشعر الوجداني العميق "فهي لونٌ من ألوان الشعر المتجدد لاتساع نطاقها بين الشعراء نتيجةً للحياة الاجتماعية القاسية في ذلك العصر، وبخاصةً شكوى الزّمان، أو الدهريات، وهناك من فروع هذا الفن شكوى الأهل، الأصدقاء، نُدرةِ الوفاء، واختفاء المعروف بين النّاسِ"[13].

فالشكوى إذَا هي تعبيرٌ عن آلامِ الإنسان ومكنُوناته وأحزانه المُؤلمة ومشاكله التي يُواجِهُهَا في الحياة نفسيةً كانت، أو اجتماعية، أو مادية، أو سياسية، أو صحية.

ثالثا: تجليات الشكــوى في شعـــر " أســـامــة بن منقــذ"

يتعرّض الإنسان في حياته للإهمالِ وسوء المعاملة، أو العنف من طرف الأفراد أو المجتمع أو الأهل، أو إلى الغدر والظُلم، أو النّفِي فتُؤدي هذهِ الظّروف إلى نوازع نفسية تعْتلجُ في صدرهِ فتُؤرقُهُ وتؤجج حُزنهُ وألمهُ، وكل هذه النوازع تقودُهُ إلى الشكوى ليُعبر عن مواجع قلبهِ وأنينهِ وترجمةِ آلامه، فهِي المرآةُ العاكسة لهذه الآلام والنوازع النفسية.

وبما أنّ الشّاعر الذي سيكون محل الدراسة شاعر من الفترة العباسية طبعًا هذا لا يعني أنّهُ سلِم من نكباتِ الدّهر وجُورِ الزّمان واضطهادِ الرجال، بل هو أيضًا واجه في حياته العديد من الظّلم ،والذُّلِ، والنّفي، وفراقِ الأحبّة، والفقر، والشّقاء، والموت و...إلخ، لذلك لا غرْو إن تصفحنّا ديوان الشاعر " **أسامة بن منقذ** " ووجدنا أنّ الحسِ الشّاكِ الحزين قد احتلّ مساحة واسعة من قصائدهِ نظرًا لما عاشهُ هذا الأخير في حياته، وقد تنّوعت موضوعات الشكوى في شعر أسامة بتنوع أسبابها، لذلك سنسلط الضّوء على هذه الظاهرة وسنتتبعها من خلال ديوانهِ.

1- شكوى الظّلم:

إنّ من أشدِ الأمُورِ حُرمةً وأسرعِها عُقوبةً وأعجلها مقتًا عند الله تعالى وعند المؤمنين، ومن أشدِ ما يُؤثرُ في النّفسِ ويُذهِبُ إنسانيتها " **الظلُم** "، فالظُلمُ ظُلُمات يوم القيامة؛ لأنّهُ تعدٍ على حقوقِ الآخرين بالباطِلِ، فهو الظلامُ الذي يُخيّمُ على بعضِ النُّفُوس ويُخالِفُ الفطرة الإنسانية التي خلقها اللهُ والتي تقومُ على العدلِ والرّحمة بين البشر.

لقد تعرَّض شاعرنا المعني بالدراسة " **أسامة بن منقذ** " للظلم وما يثبت صحة ذلك شكواه لوالدهِ ما صادفهُ من ظُلمٍ تلقَّاهُ من عمّهِ " **أبو العساكر سلطان بن علي** " الذي نفاهُ من وطنِهِ **شيزر** التي شهد فيها مدارج طفُولتِهِ وملاعب صِباه، فطفِق يشكو إلى أبيه في قصيدةٍ حزينةٍ شاكيةٍ ما علق في صدره من همٍ وضيقٍ وحسرةٍ، عمّا نالهُ من سُوءِ العيشِ الذي لحِقهُ جراء هذا **الغدر والظلم** الذي كدّر صفاء عيشه[14]:

أشكُو إلى عليّاكَ همًّا ضَاق عنْ كِتمانِهِ صَدرِي ومَا هُو ضِيـّقُ

وطَوارِقًا للهمِّ أُقربّها الكَــرى وتلّظّ بِي صُبْحًا فَمَا نتفَــرقُ

وحينما يتعرّض أسامة لظلم الحبيبة وجُورها يتوجه إليها بخطابٍ مريرٍ مشحونٍ بعبارات اللّوم والعتاب والشّكوى، معبرًا فيه عن مدى حزنه لما بدر منها من صدٍ وهجرٍ وعدم اهتمامٍ، لذلك يقول مخاطبًا ومعاتبًا[15]:

يا ملُــولاً قلّمــا اســتُر عِـي عُـهُـودًا فَـرعَـاهَـا

يا ظلُومًا كلّما اسْتعْــــ طفْتُــهُ صــــدّ وتَــاهَــا

راحَتِي لو سَمَع الشّكْــــ وى إليّــــهِ ووعَــاهَــا

وهو لو نادى عِظَــامِــي رِمــةً لبّــى صَــداهَــا

متلِفٌ بالهجــرِ نفْسِي وإليــهِ مشّتَــكَــاهَــا

2- الشّكوى السياسية:

السياسة نظامٌ معينٌ لتسيير المجتمع وقيادته بالإصلاح والتهذيب ورعاية شؤون الدولة الداخلية والخارجية، إلاّ أنّهُ أحيانًا يكونُ القادة والحكّام والسياسيون ظالمين لفئةٍ من البشر، وعن ظلم الدولة يتوجه أسامة شاكيًا للملك الصالح وزير مصر، متسائلاً متى يُحكمُ لهُ بالعدلِ، يقول [16]:

يا أخي الشّاكي لِما أشّــــ كُوهُ والحَــامــلَ هــمْــي

ونسِــيّبَ الــودّ لا نِســ بَـــــةَ آبَـــــاءٍ وعَـــــمٍ

ظلمَتْـــــنِي دولةُ العـــد لُ فمنْ يكشِـفُ ظُلْمِـــي

ومتى يُحكمُ لِي بالـــــــ عَدْلِ والحَاكِـمُ خصْـمِي

3- شكوى الفراق والاغتراب والحنين:

ما كادت عينُ أسامة تقرُّ برؤيةِ أهلهِ وأخيهِ، حتّى اصطكّتْ الأسماعُ بأخبارِ الزلازل التي شمِلتْ عددًا من المدنِ، ودمرتْ بعض القلاع سنة 552هـ وأودتْ **بشيزر** وآلِ منقذ جميعًا فكان هلاكُ أهلِهِ وبني قومهِ منعطفًا هامًا في مسيرةِ حياتِهِ[17]، فاتجه الشاعر إلى الله تعالى يبُثهُ وجعهُ وشكواهُ الذي طال بطول غربته وحنينه والذي صعُب عليه نسيانه وخمود نيرانه، بل الأكثر من ذلِك حرَمهُ من متعة الحياة ولذّة العيش، فلا طُول البُكاءِ يُجدِي ولا الصّبر ينفع، ويختصرُ ذلك في قوله[18]:

إلى اللهِ أشكُو من جوًى لمْ أجدْ لهُ مُسَاغًا ولا طُولُ البُكاءِ يُمِيطُهُ

ومنْ حرِّ قلْبٍ كلّما رُمْتُ بـــــردَهُ بِتسّوِيّفِهِ أذكَى جَواهُ قُنُوطُهُ

ويشكُو أسامة من الحوادث التي تكاثرت عليه **وأفردتهُ بوحدته** كأنّهُ خُلِق لوحدهِ من غير أهلٍ ليس لهُ من يُؤنِسهُ أو يطرُق بابهُ في هذه الدنيا، في قوله[19]:

وقدْ أفردتنِي الحادثاتُ فليّس لِي أنِيسٌ ولا فِي طَارِقِ الخَطبِ أعْوانُ

كَأنّي من غيرِ التُّرابِ نَبِتَ بي الـ بِلادُ فمَـالِي فِي البَسِيطَـةِ أوطَـانُ

ولمّا كان " **بحلب** " وصلهُ بعض الأصحاب بخبرٍ مفادهُ أنّ من كان لهُ من الأهلِ والأولاد لم يصلوا، وأنّ المركب قد انكسر بهم في ساحل " **عكّا** " ونهب الإفرنج كل ما فيه من الأموال والأملاك، فجعل أسامة يتضرّعُ إلى الله بشكواه معبرًا عن مدى حزنه الشّديد لفراقه لأهله الذين هم قرّةُ عينِه، وراحة قلبه، ومصدر قوته، هذا اللّقاء الذي طالما

ترقبهُ الشّاعر بشوقٍ كبيرٍ انتهى بعدم حصوله؛ لأنّ العدو قد أحال بينه وبين لقائه بهم مرة ثانية[20]:

إلى اللهِ أشْكُو فرقةً دَمِيت لهَـــا جُفُونِي وأذّكتْ بالهُمُومِ ضَمِيرِي

تمَادتْ إلى أنْ لاَذتِ النّفْسُ بالمُنى وطَارتْ بها الأشْواقُ كلَّ مطيـــرِ

فلّما قَضَى اللهُ اللّقاءَ تعـــرّضتْ مسَاءةُ دهْرِي في طريقِ سُــرورِي

4- شكوى الشّقاء و الفقر:

إنّ الحياةَ قسَتْ على **أسامة بن منقذ** فتعاقبتْ عليه سلسلة من الأحزانِ والمصائِبِ غذّتْ جرثومة الحزن التي تسلّلتْ مُبكرة إلى نفسِهِ، هذهِ النّفسِ الحزينة جفّتْ فيها الأماني والأحلام، فالشّاعر متبرِمٌ من الحيّاةِ لا يكادُ يرى فيها خيرًا، لذلك أنشد أبياتًا كثيرة يُصورُ فيها **شقاءَهُ** في الحياة شاكيًا من سُوءِ الحظِّ الـذي يُطاردهُ، فنجده يتوجّه بشكواه إلى الله في هذه الأبيات ساردًا أحوالهُ التي أفنتْها النّوائِب وحوادثُ الدّهرِ وكدّرتْ صفاء عيشِهِ وأحالت بينه وبين أمانيه وأحلامه التي طالما سعى لنيلها والوصول إليها، يقول[21]:

إلى اللهِ أشكُو عِيشَةً قد تنكدّتْ عَليَّ ودهْرًا قَـدْ ألحّتْ نوائِبُـهُ

تَكَدّر مِنْ بَعْـدِ الصّفَـاءِ نمِـيّرُهُ وأحزنَ من بعْدِ السُّهُولةِ جانِبَهُ

وقصُر كَفِي عنْ نَـوالٍ تُنيّلُـــهُ وزوالُهَـا عَنْ نيّلِ مَا أنَا طَالِبُـهُ

ولمّا أرهق الفراق والبُعد نفسية الشاعر أسامة، كتب إلى والده أبياتًا يشكو لهُ فيها الشّقاء والمرض الذي لحِقه جرّاء هذا البعد، يائِسًا كيئسِ اللّديغ من الشِّفاء[22]:

حَظَر الوَفَاءُ عَليّ أنْ أسلُـو فَـلاَ فَكّ السُّلُو من الغرامِ وَثاقِي

لا ترجونَ لِي الشفاءَ من الجوَى واليّأسُ كُلّ اليأسِ من إفراقِي

كيّفَ الإفاقةُ للّديغُ أخِي الهَوى مِنْ دائِـهِ والسُّـمُ في الدّرياقِ

سُقْمُ الجفُونِ سِقامُهُ وشِفاؤهُ فيهَا فمِنْهـا الـدّاءُ وهي الرّاقِي

5- شكـوى الهـمّ:

وبما أنّ **الهـمّ** قرّر أن لا يترك الشاعر أخذ يشكو إلى الله حالتهُ السيئة؛ لأنّ هذا **الهـمّ** حظر على قلبهِ السُّرور، فلو لم يكن هذا القلب يتألم لما لاقاهُ من خطُوبِ الدهرِ لعُدَّ من الجمادات، لذلك نجده يقول شاكيًا همّهُ لله تعالى[23]:

وإليّك أشكُـو بَـرحَ هَـمٍّ كُـلّ يـــومٍ فـي ازدِيّـــادِ

حَظَرَ السُّرُور على فُؤادِي لا يُسَـــرُّ بِمُسْتَـــفَـــادِ

لَـولاَ تـــألُمِـــهِ لِمَـــا يلْـقَى لعُـــدَّ مِـــن الجمَـــادِ

ويُخاطبُ الشّاعر والدهُ بأبياتٍ تضُجُ بالحزن، يشكُو إليه **همًّا** ضاق به صدرهُ وعجز عن كتمانِهِ في قوله[24]:

يا ابْنَ الأُلى جمَع الفخارُ لِبيّتِهِمْ ما شَتّتُوهُ من العَطَاءِ وفَرّقُوا

أشكُو إلى علّياكَ همًّا ضاقَ عنْ كِتْمانهُ صَدْرِي ومَا هُو ضيّقُ

وطَوارِقًا للهمِّ أُقرّبها الكَـــرى وتلُظّ بي صُبْحًا فمَـا نتفـرقُ

وقال في ولده أبي بكرٍ وقد توفي صغيرًا يشكو ما حلّ بهِ من همومٍ وما غشيهُ من كربٍ قائلا[25]:

لَوْ رأى مَا حلّ بِي من بعْدِهِ من هُمُومٍ غشِيّتنـــي وكَـربْ

لبَكى لِي تحْتَ أطبَاقِ الثّرى وبُكَـاءُ الميّـتِ للحيّ عَـجـبْ

وكتب إلى أخيه " **عزّ الدولة أبو الحسن** "، يشكو إليه الهمّ الذي سكن قلبه لبعده عنهم وأبى أن يزول عنه؛ لأنّ أيام الهمُومِ تطول، فيقول له[26]:

أبَا حسنٍ قدْ رانَ بعد بعَادكمْ على القلبِ همٌّ ما أراهُ يَزولُ

أُعلِـلُ نفْسِـــي أنّنِي سَـــأبُثُّهُ إذا ما الّتقيّنا والرّجاءُ مَطُولُ

إذا قُلْتُ في أعقابِ ذا العامِ نلْتقِي تمادَى وأيّامُ الهُمُومِ تَطُـــولُ

6- شـكوى الموت والنّكبات:

من مِنا لا يُصدِقُ بحتمية **الموت** بل الإجابة معروفة كلنا نعلمُ أنّ هذهِ الحقيقة واردة لا مردَ لوقُوعها؛ لأنّها بين يدي الحيّ القيُوم الذي يُحيّ ويُمِيّتُ والذي يقــول في محكـمِ تنزيلـهِ:﴿ **(184)كُلُ نفْسٍ ذائِقةُ الموتِ وإنّما تُوفَونَ أُجُوركمْ يوم القِيامَةِ فمَنْ زُحّزِحَ عَنِ النّارِ وأُدْخِلَ الجنّةَ فقَدْ فازَ ومَا الحيَاةُ الدُّنيَا إلاّ متَاعُ الغُرُورِ (185)**﴾[27].

وحين ابتُليّ أسامة **بالموتِ** في أبنائهِ وأقاربِهِ صدحتْ قريحتُهُ وجادتْ بما تجودُ به قريحـة أيّ شـاعـر سكن قلبـهُ الحزن حيّث خصـص بابـاً كـامِلاً **لرثـاءِ** الأحبـةِ وخصّ جزءًا كبيرًا منه لرثاء ابنهِ "**عتيق** "والمكنّى "**بأبي بكـرٍ**"مضى يشكُو مدى حُزنِهِ عليه، لاسيّما أنّهُ فقدهُ وهو كبيرٌ قد قارب سنّ الثّمانين فلا خلف بعدهُ، لذلك نجدهُ يرفعُ شكواه لله تعالى يبُثُهُ مدى حزنهِ والأضرار المعنوية التي حققتها هذه الفاجعة الأليمة، شاكيًا في قوله[28]:

إلى اللهِ أشكُو رَوعَتِي ورَزِيّتِي وحُـرقةَ أحْشَـائِي لِـفَقْـدِ أبِي بَكْـــرِ

فلا ناظري منهُ وكان سوادَهُ ولمْ يخْلُ من حزني ووجّدِي بهِ صَدري

خَشِيّتُ عليهِ اليُتمَ لكن ثكْلَهُ ولَوعَتِهُ لَمْ يخْطُرَا لِي عَلَى فِكْـــرِ

ثم يُصور حَالته حين يتذكر هذهِ ربوع وطنه وديارِه وكيف صارت فيشتدُ الحـزن بداخلـه فيصير كالذي أصابه السِّحر أو المسّ، خاصةً حينما يتذكر أنّ الزّمن لن يكررهم مرة ثانية فلا صبـر ولا عـوض عمّـا فقـدهُ من أحبـةٍ، لذلك توجه بشكواه في قوله[29]:

إذَا مرَّ في فِكْري الدِيـّـارُ وأهلهَـــا فَبَالِي مِنْ وَجْدٍ يُجددُهُ الذِكْـرُ

إذا أوحَشَتْنِي وحْدتِي بعْد فَقْدِهِم وَلِهْتُ كأنّي قَدْ أصابنيَ السِّحْـرُ

فكيَفَ التَسَلّي والتأسِي فِيهِـــــمُ ولا عوضٌ مِنْهُمُ ولا عَنْهُمُ صَبْـرُ

بالرغم من أنّ سلسة **الخطوب والرّزايا** تلاحقت على الشّاعر من كل الجهات رغم قوة صبره وعزيمته، إلاّ أنّ الشاعر أسامة يُلجِم لسانهُ وينزههُ عن البوح بالشكوى وهذا ما يفسر أنّ الهموم أثقلت عاتقهُ حتى صار بالنسبة إليه لا فائدة منها بل الرّاحة والسلامة في الصّبر ، وما يثبت ذلك قولهُ[30]:

ولا تسأليني عنْ زماني فَإنّني أُنَزِهُ عنْ شكْوى الخطُوبِ لسَانِي

ولكن سِلِي عنّي الزّمان فإنّهُ يُحدِثُ عنْ صبْرِي على الحدثَـانِ

رمتنِي اللّيالِي بالخطُوبِ جَهَالةً بِصــبْرِي على مَـا نَـابني وعَـرانِـــي

7- شكـوى الـدّهـر:

يقول الله تعالى: ﴿ (23) قالُوا مَاهِي إلاّ حيَاتُنَا الدُنيا نمُوتُ ونحيَّا وما يُهلِكُنا إلاّ الدّهْرُ وما لهُم بذلِك من علمٍ إنْ هُمْ إلاّ يظُنُّونَ (24)↑[31] ، والدهرُ اسمٌ للزّمن الطويل فقد نهى الرسول " **صلى الله عليه وسلم** " عن سبّهِ في قوله" **صلى الله عليه وسلم** ": «**لا تسُبُوا فاعِلَ هذهِ الأشياءِ فإنّكُمْ إذا سببتُمُوهُمْ وقعَ السَّبُ على اللهِ تعالى لأنّهُ الفعّالُ لِما يُرِيدُ لا الدّهْرُ**»[32]، لكنّ الشُعراء غالبًا ما يُبالِغُون في ذكرهِ وذمّهِ ويُكثرون الشّكوى والتذمر اتجاههُ.

ولعلّ الشاعر" **أسامة بن منقذ** " خيرُ دليل على ذلك حين تنكدّتْ عيشتهُ وألحّت نوائِبُ **الدّهر** عليه، وقصرتْ يدهُ عن نيلِ ما تمناهُ، اتجه إلى الله سبحانهُ وتعالى رافعًا شكواهُ إليه لعلّهُ ينظُر لأمرهِ، فيقول[33]:

إلى اللهِ أشكُو عيّشةً قدْ تنكدَتْ عَليّ ودهْـرًا قـدْ ألحـتْ نَـوائِبُـــهُ

تكدّر من بعْدِ الصّفاءِ نمِيّــرهُ وأحْزنَ من بعْدِ السُهُولةِ جَانِبُهُ

وقَصُرَ كَفِيّ عن نـــوالٍ تُنِيلُـــهُ وزوالِهَا عـنْ نيّلِ مَـا أنَا طَالِبُـهُ

ويتوجه إلى صديقٍ له متبرمًا شاكيًا من خطوب **الدّهر** التي أرهقتهُ وأثقلت عاتقهُ، فحتى الأيام لم ترحمهُ بل رمته وطعنته بسهم الرّزايا وذلك في قوله[34]:

أوْهتْ خطُوبُ الدّهرِ منْ هِمَـــمِي وفلّـت حـــدّ عَـــزْمِي

ورمَتْنِي الأيّــامُ عَـــــنْ قَوْسِـــي فَـــأرْدتنِي بسَهْـــمِي

وكتب إلى **الملك الصّالح** ملك **مصر** أبياتًا يشكو فيها من نوائب **الدّهر** التي أرّهقتهُ بتوالي خطوبِها وتتابعها، فصار يشّبه نفسهُ بالشّجر الأخضر الذي جفّ وتساقطتْ أوراقهُ، خاصةً لمّا ضاعت أموالهُ وكتبهُ، يقول[35]:

أنَا أشْكُو إليّكَ دهْرًا لجَّا عُو دِي وأعْراهُ فهُو يبْسٌ سلِيّـبُ

وخُطُوبًا رمَى بهَا حَادِثُ الدّ هْرِ سَوادِي وكُلُهـنّ مُصِيّـــبُ

أذهبتْ تَالِدِي وطَارِفِي الطّـا رِي فَضَاعَ الموروثُ والمسّكُوبُ

8- شكوى الزّمان:

مضتْ قصائِدُ أسامة تحْمِلُ الثّناء على " **الملك الصالح** " وزير **مصر**، فكان الصالح يبرهُ ويُرسِلُ إليهِ خيرهُ ولم يكُنْ أسامة يجدُ حرجًا في سُؤالِهِ ولا الشّكوى إليهِ[36]، فكتب إليّهِ مرة يشكوهُ جور **الزّمانِ** الذي لحّتْ نوائِبهُ عُودهُ وشتت شمْلهُ المُؤتلفَ، فيطلُـب منهُ المسـاعـدة والعدل[37]:

أشّكُو زمانًا قضى بالجُورِ فيَّ ولمْ يــزلْ يجُـورُ عـلى مِثْلِي ويعْتسِـفُ

لحَتْ نَوائِبُهُ عُودِي وأنفَـدَ مَـوْ جُودِي وشَتّتَ شمْلِي وهُو مُؤتـلِفُ

وقدْ دعوتُكَ مظْلُومًا ومُرتجِيًـا وفِي يَدَيّكَ الغِنَى والعَـدلُ والخلَـفُ

يبدو أن **الزّمان** أثقل كاهل الشاعر حتى صار لا يشتكي من الحوادث والخطوب بقدرِ ما يشتكِي من جورِ **الزّمان**[38]:

أصبَحتُ لا أشكُو الخُطُوبَ وإنّما أشّكُـــو زمَــانًا لمْ يَدعْ لِي مُشْتــكَى

أفْنَى أخِـــلائِي وأهـــلَ مَوَدتِي وأبَــادَ إخــوانَ الصّفَــاءِ وأهْلكَـا

ولمّا جار **الزّمان** على الشاعر مرة ثانية ولكن هذه المرة وهو طاعنٌ في السن، أصبح يرى فيه أنه زمنٌ قاسي يُشيبُ فؤاد الجنينِ في أحشاء أمهِ ويهرِمُ المولود وهو رضيع في اللّفةِ، والأسوأ من ذلك أنّ حالة هذا الزّمان تسيرُ إلى الأصعب والأردأ، حتى صار يرى أن كلّ غدٍ يحِلُ عليه أتعس من سابقهِ، بل الأمس عنده أجمل من الغد هكذا يقول[39]:

أصبحتُ في زمنٍ يَشِيبُ لِجُورِهِ فُودُ الجَنِيـــــنِ ويهْـــرَمُ المـولُـودُ

وإذا شكونَا اليومَ ثُمّ أتى غَـدٌ قُلْنَـا: ألا ليّـتَ أمْـــسٍ يَـعُـــودُ

9 - شكوى الكبر والمشيب:

لمّا كبر أسامة **وعلتْ سنهُ** ووهن عظمهُ وشاب شعرهُ، أخذ **يشكُو طول العمر** وثقل الحياة عليه فهو يجدُ في الموت أعظم راحةٍ تنْقِذُهُ من ضعفِهِ، خاصةً حينما يتذكرُ شبابهُ وصباه ويوازنُ بين قُوتِهِ في الماضي وضعْفِهِ في الحاضرِ، حيثُ صار يمشي مثقلاً كالمُكبلِ بالقيُودِ يقول[40]:

وما سَاءَنِي أنْ أحَالَ الزّمَـــا نُ ليْلِي نهَـــارًا وجهْـــلِي وقَـــــارَا

لكِنْ يقُولُونَ: عَصْرُ الشّبابِ يكُـــونُ لِكُـــلِ سُـــــرُورٍ قَـــــرَارَ

فوجْـدِي أنّـــي فَـارقْتُـــــــهُ ولمْ أُبـلُ مـا يزْعُمُونَ اختِبَـــارَا

ولمّا بلغ أسامة سِن السّبعين، أخذ يشكو الشّقاء والتعب الذي لحِقه من وراء **كبر سنهِ**؛ حيث أفنَتْ السّبعون بدنهُ وحطمتْ قِواه، وهذه حالُ كل من يتمنى طُول العمر، يقول[41]:

لمْ تتركْ السّبْعُـــونَ في إقبَالِهَـــا مِنِي سِوى مَـــالاً عليـــهِ مُعَـوّلُ

حطّمَتْ قُوّاي وأوّهنتْ من نهْضتِي وكذا بمن طلـبَ السّلامَةَ تفْعَـلُ

خاتمة:

يعدُ الشاعر " **أسامة بن منقذ** " في طليعة شعراء عصره في شعر الشكوى؛ لأنّ المحركات الأساسية لشكواه تعود إلى عدةِ أمور توالتْ عليه يمكن أن نلخصها فيما يلي: وفاة والده، الظلم

الذي لاقاهُ من عمّهِ، النّفي، البعد عن الوطن والأهل، ضيّاع ماله وكُتبهِ، الفقر والشّقاء، موت الابن، موت ابنة الأخ، احتلال الإفرنج لبلـده، والزلازل التي نكَبتْ شيزر، وبهذا الكم الهائل من المصائب يمكنُ لنا أن نُفسِر سببَ نُشُوء الحسّ الشّاكي الباكي لدى الشاعر أسامة بن منقذ.

الهوامش والإحالات:

[1] سورة يوسف، الآية: 86.

[2] سورة الأنبياء، الآية: 83،84.

[3] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج2، دار بيـروت للنشـر والطباعـة، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1995م، ص 303. **ينظر أيضا**: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1980م، ص291.

[4] ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكّار،ج3، دار الفكر للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1،(د، ت)، ص1361.

[5] عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشّام)، تح: شكري فيصل،ج1، المطبعة الهاشمية، دمشق، سوريا،(د، ط)، 1375 هـ ،1955م، ص498.

ينظر أيضا: خير الدين الزركلي: الأعلام،ج1، ص291. **ينظر أيضا**: أسامة بن منقذ: الاعتبار، تد: عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط2، 1424هـ، 2003م، ص124.

[6] عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء الشّام) ،ج1، ص498.

[7] محمد عدنان قيّطاز: أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره، منشـورات وزارة الثقافـة، دمشق، سوريا، (د، ط)، 1998م، ص12.

[8] أسامة بن منقذ: ديوان الفارس أسامة بن منقذ، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص05.

[9] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص303. **ينظر أيضا**: ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس،ج1، بيروت، لبنان،(د، ط)، 1978م، ص199.

[10] ابن فارس: مقاييس اللغة، تح :عبد السلام محمد هارون ،ج3، دار الفكر، دمشق ، سوريا،(د، ط)،1399هـ،1979م، ص:207.

[11] الخليل الفراهيدي: معجم العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج5، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط2، 1409هـ، 1989م، ص:388.

[12] الرّاغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء، تهذيب إبراهيم زيدان، ج2، مطبعة الهلال، القاهرة، مصر، (د، ط)،1902م، ص:438.

[13] مصطفى الشّكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيّن، عالم الكتب، بيروت، لبنان،(د، ط)،1981م،ص:69.

[14] أسامة بن منقذ: الديوان، ص: 177.

[15] المصدر نفسه، ص:101،102.

[16] المصدر نفسه، ص:310،311.

[17] محمد عدنان قيّطاز: أسامة بن منقذ والجديد من آثاره وأشعاره، ص:25.

[18] أسامة بن منقذ: الديوان، ص:131.

[19] المصدر نفسه، ص:155.

[20] المصدر نفسه، ص:126.
[21] المصدر نفسه، ص:106.
[22] المصدر نفسه، ص:181.
[23] المصدر نفسه، ص:111.
[24] المصدر نفسه، ص:177.
[25] المصدر نفسه، ص:293.
[26] المصدر نفسه، ص:188.
[27] سورة آل عمران، الآية: 184،185.
[28] أسامة بن منقذ: الديوان، ص:347.
[29] المصدر نفسه، ص:78.
[30] المصدر نفسه، ص:278.
[31] سورة الجاثية، الآية:23،24.
[32] عبد القادر الجيلاني: الفتح الرّباني والفيّض الرّحماني،ج1، دار الرّيان للتراث، للتراث شارع الأهرام، القاهرة، مصر، (د، ط)،(د، ت)، ص:243.
[33] أسامة بن منقذ: الديوان، ص:106.
[34] المصدر نفسه، ص:323.
[35] المصدر نفسه، ص:213.
[36] المصدر نفسه، **مقدمة**: أحمد أحمد بدوي، ص:30.
[37] المصدر نفسه، ص: 220.
[38] ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق، تح: إبراهيم صالح، ج4، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1408هـ،1987م، ص: 259.
[39] المصدر نفسه، ص:298.
[40] أسامة بن منقذ: الديوان، ص:318.
[41] المصدر نفسه، ص:320،321.